

امتداد الإسلام والعروبة إلى وادي النيل الأوسط

« مملكة علوة »

مملكة علوة هي إحدى الممالك النوبية الثلاث، التي قامت في شمال السودان ووسطه على أنقاض مملكة مروى التي أخذت في الانهيار منذ منتصف القرن الرابع الميلادي ذلك أن غزو مملكة أكسوم الحبشية لجهات حوض النيل الأوسط بقيادة الملك عيزانا أدى وقتذاك إلى انقسام مملكة مروى إلى إمارات صغيرة تحت حكم رؤساء وطنيين . وظلت هذه المملكة مدة قرنين على الأقل ، مسرحا للاضطرابات والحروب الداخلية ، حتى استطاع بعض أمراءها أن يتوسع على حساب البعض الآخر ، فنشأت على أثر ذلك ثلاث ممالك مستقلة بشئونها ، هي التي استقبلت الدعوة المسيحية رسميا ، في منتصف القرن السادس الميلادي . أما هذه الممالك النوبية المسيحية - حسبما ورد في المراجع السريانية⁽¹⁾ - فأولاهم مملكة النوبادين Nobadae أي نوباديا Nobadia وعاصمتها بنجراش « فرس » ، وتمتد من مدينة أسوان إلى قرية عكاشة ، جنوبي الشلال الثاني. وثانيها مملكة الماكوريين ، Makoritae ، أي مقرة ، وعاصمتها دنقلة ، وتمتد من قرية عكاشة إلى بلدة الأبواب (كبدشية الحالية) . وثالثها مملكة أطلق اليونانيون على سكانها اسم Alodiae وهي علوة ، تمتد جنوبي مقرة حتى بلدة القطينة على النيل الأبيض ، وعاصمتها سوبا. وتشمل هذه المملكة بعض جهات الأتبرا والنيل الأزرق شرقا حتى حدود الحبشة ، وبعض جهات كردفان ودار فور غربا⁽²⁾ . وما بين سنتي ٥٨٠-٦٥٢م

(1) Cf. John of Ephesus : Ecclesiastical History, part II, tr. by R. Payne Smith, London 1860. p. 319.

(2) Villard, Ugo Monnert de : Storia della Nubia Cristiana, Roma 1938, p. 156.

اتحدت الملكتان الشماليتان - نوباديا ومقرة - في مملكة واحدة عرفت باسم مقرة أو النوبة كذلك . كما عرف جزؤها الشمالي « نوباديا » ، باسم مريس^(٣) .

ورثت هاتان الملكتان ما خلفته دولة مروى من مظاهر حضارية هي في الواقع مزيج من ثقافات مختلفة، مصرية ويونانية ورومانية (مصدرها مصر بطبيعة الحال) فضلا عن ثقافات حبشية سبئية، ولا سيما في ناحيتي الدين والفن وهي لا تخلو من آثار بدائية محلية. وعلى الرغم من استقلال هذه المنطقة سياسيا عن مصر في العصور الوسطى إلا أن المؤثرات الثقافية والبشرية، ظلت تشق طريقها من مصر إلى هذه المنطقة جميعها ولا سيما جزءها الشمالي «مقرة» وذلك لقربه من مصر. فالمسيحية على مذهب الكنيسة المصرية مثلا - شأنها شأن الحضارة المصرية القديمة - دخلت السودان من الشمال . هذا فضلا عن انتشار اللغة القبطية في النوبة الشمالية «مقرة»، واستخدامها في الوثائق الرسمية وفي كثير من الأغراض الدينية كذلك^(٤) .

ويتصف الدور المسيحي من تاريخ النوبة ، بطابع حضارى خاص، يبدو واضحا في نظمها السياسية والإدارية وحياة أهلها الاجتماعية والدينية . وإذا كانت معلوماتنا عن الحضارة النوبية في مملكة علوة ، قليلة - بالقياس إلى جارتها مقرة في الشمال - لضياح معظم آثار علوة ، إلا أن الكثير من مظاهر حضارتها - فيما يبدو - كانت تشبه - إلى حد بعيد - مظاهر الحضارة في مملكة مقرة. والواضح من دراسة النظم السياسية والإدارية ، في مملكة علوة ، أنها حكمت حكما ملكيا مطلقا . فكبيرها عرف باسم ملك علوة وعاصمته سوبا . وهو الذي يملك الأرض ومن عليها. واتبع ملوك علوة نظام

(3) Cf. Kirwan, L.P. : Nates on the topography of the Christian Nubian Kingdoms. Jour. Egypt. An. XXI, 1934, p. 57.

(4) Griffith, F. Ll. : «Christian Documents from Nubia». Proc. British Academy XIV, 1928, pp. 17-18. Griffith, F. Ll. Oxford Ex. in Nubia. p. 53.

الأمومة في وراثة العرش^(٥). كما قضى نظام حكم الأقاليم، بتقسيم المملكة إلى ولايات أو ممالك صغيرة، على رأس كل منها ملك. ولعل ملك إقليم الأبواب، أعظم أولئك الملوك الإقليميين خطرا وأعلامهم مقاما، وهو الذي عرف باسم الرحاح^(٦).

وللمجتمع النوبي خصائص معينة انفرد بها. إذ أنه يشكل نوعا من الإقطاع، غريبا في تركيبه؛ ولم يعرف له نظير في الإقطاع الشرقى أو الغربى. فالأمر المالك وفروعها في الأقاليم، تمثل الطبقة الأرستقراطية، التي مارست وحدها حقوقا سياسية ودينية. أما الشعب كله، فيمثله طبقة العبيد الكادحة في الأرض، التي لا يملكون منها شيئا. إنما تملكهم عليها، تملك العبيد العاملين فيها لصالح سادتهم. فهم جميعا عبيد الملك، يباعون ويشترىون، ويهدى بهم ويقومون مقام العملة^(٧). وبين هاتين الطبقتين، قامت فئة الموظفين القليلة العدد، التي تولت معظم الوظائف الملكية في العاصمة والأقاليم.

وانجهدت مملكة علوة في زعامتها الروحية، إلى الكنيسة المصرية، التي كانت تمدّها بالأساقفة المصريين. وظلت الطقوس الدينية في كنائس علوة، تؤدى باللغة اليونانية حتى القرن الثامن الميلادى، حين ترجمت هذه الطقوس إلى اللغة النوبية، التي لم تصبح لغة مدونة إلا في حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى^(٨).

تلك هي الأسس التي قامت عليها الملكية المسيحية في النوبة. ويلاحظ أن مملكة علوة، ظلت متمتعة باستقلالها في ظل هذه النظم ما يقرب من عشرة قرون. ومرجع ذلك في الغالب، أن الدولة الإسلامية في عز أيام توسعها، لم تجنح إلى ضم مملكتى النوبة عنوة إلى أملاكها. وإذا كان العرب - بعد فتح مصر - جردوا حملتين لغزو النوبة الشمالية « مقرة »، بقصد تأمين حدود مصر الجنوبية، وتأكيدها

(٥) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ص ٥٦

(٦) المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ١٩٣ - طبعة بولاق .

(٧) المقرئى : نفس المصدر ص ١٩٣

(٨) Cf. Griffith, FLI. : Christian Documents from Nubia, p. 14

حقوقها التجارية في النوبة ، إلا أنهم لم يحتلوها بقواتهم ، على الرغم من النصر الحربي الذي أحرزوه في حملتهم الثانية عليها بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح سنة ٦٥٢م ودخولهم دنقلة العاصمة . بل عقد القائد العربي لأهل مقرة عقدا يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان على حدودهم من ناحية الجنوب ، وفتح النوبة للتجارة ، والحصول على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الإسلامية ، وحفظ مصالح المسلمين وحريةهم الدينية فيها^(٩) . هذا ولم يتعرض المسلمون لمملكة علوة ولم يفكروا في احتلالها . ويبدو أن العرب أدركوا - منذ البداية - أثر الاتصال البشري والثقافي الطبيعي بين مصر وهذه البلاد ، في تغذيتها بالدماء العربية ونشر الثقافة الإسلامية فيها . فلم يهتموا باحتلالها . فعلى الرغم مما نص عليه عقد عبد الله بن سعد لأهل مقرة من عدم السماح للمسلمين بالدخول إلى بلادهم إلا للتجارة . فإن الجماعات العربية بالصعيد الأعلى لم تتقيد بهذا الشرط . بل أخذت في التسرب التدريجي إلى بلاد النوبة السفلى « مريس »^(١٠) وظلت هذه المنطقة ، وما جاورها شرقا في أوطان البجة ، تستقبل كثيراً من القبائل العربية ، ولا سيما بعد أن فقد العرب نفوذهم القديم ، بقطع العطاء عنهم ، منذ عهد الخليفة المعتصم بالله العباسي ، وضغط الولاة الأتراك عليهم في مصر ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادي . واختلط العرب بالنوبيين والبجة ، واعتنق كثير منهم الإسلام ولم يعد لملوك النوبة « مقرة » في منطقة مريس سوى نفوذ إسمي ، ثم إن اشتراك كثير من القبائل العربية في مصر في الحملات المملوكية على مقرة ، لم يؤدي إلى إخضاعها للسلطنة المملوكية فحسب ، بل أدت إلى استقرار معظم هذه القبائل العربية في مقرة ، وعدم العودة إلى مصر صحبة الجيوش المملوكية^(١١) .

ومما لا شك فيه ، أنه كان لاستقرار كثير من القبائل العربية في مقرة الأصلية (Maqurra proper) بعد أن أضحى الطريق ممهدا لانسيابها جنوبي الشلال الثاني -

(٩) راجع عقد عبد الله بن سعد للنوبيين في المواعظ والاعتبار للمقريني ج ١ ص ١٩٩

(١٠) المسعودي : مروج الذهب . نشر دي مينار ج ٣ ص ٤١

(١١) مصطفى مسعد : ممالك النوبة المسيحية - اضطلالها وسقوطها . رسالة لم تنشر ص ١٨٠

أثر واضح في صبح هذه البلاد وسكانها بصبغة عربية . ولعل بني كنز كانوا أقوى . هذه العناصر ، التي أتت لها أن تشارك في حوادث هذه الدولة ، باشتراكهم في معظم هذه الحملات المملوكية على مقرة ، ثم مكنوا لأنفسهم فيها بمصاهرة البيت المالك النوبي في دقلة . فادعى أميرهم بحقه في ملك مقرة ، عن طريق وراثة الأم^(١٢) . واستعان بنو كنز بالعرب المهاجرين والنوبيين المتوطنين فيها ، فانزع أميرهم كنز الدولة ، ملك مقرة ، وأعلن استقلاله عن السلطنة المملوكية سنة ١٣٢٣م . ويبدو أن العرب كانوا من القوة والكثرة العددية ، بحيث تمكنوا من التغلب على بيوت الإمارة النوبية القديمة في مقرة ، فضلا عن تحدى السلطان المملوكي والاستقلال عنه . فما كان يفيد كنز الدولة في كثير أو قليل حقه المشروع في ملك مقرة - عن طريق وراثة الأم - لولا ما اجتمعت إليه من قوة العرب المهاجرين ، والنوبيين المتوطنين ، الذين تأثروا بهم ، وامتزجت دماؤهم بدمائهم . ولم يقتصر دور العرب الذين استقروا في مقرة ، على القضاء على البيت الملكي بها ، بل إن اختلاطهم بالنوبيين في مريس ، منذ القرن التاسع الميلادي ، ثم فيما يليها جنوبا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي على الأقل ، أدى إلى انتشار الإسلام بين النوبيين ، الذين يقول عنهم ابن خلدون « إن الجزية انقطعت بإسلامهم^(١٣) ، ولم تشر المراجع إلى اسم ملك مسيحي لمملكة مقرة ، بعد كنز الدولة ، والراجح أن خلفاءه جميعا ، إما أنهم كانوا عربا ، أو نوبيين مستعربين» .

لم تستقر أحوال هذه المملكة ، بعد سقوطها في أيدي بني كنز . بل أضحت مسرحا للاضطرابات ، التي كانت من عمل بني كنز ، أو غيرهم من القبائل العربية ، التي استقرت في مملكة مقرة ، مثل بني جعد وبني عكرمة ، والحوارة ، وبني هلال وغيرها ، بسبب التنافس على السلطة^(١٤) . وفي القرن الخامس عشر الميلادي ، تم اختلاط هؤلاء

(١٢) النويري - نهاية الأرب في فنون الأدب - مخطوطة ج ٣٠ - ورقة ٩٥

المقريني - السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر زياده ج ٢ - القسم الأول ص ١٦١

(١٣) ابن خلدون : العبر وديوان الابدأ والخبر - ج ٥ ص ٤٢٩

(١٤) Quatremère, E. : Memoires geog. et hist. sur l'Égypte et sur quelques Contreés voisins, II, pp. 120-122.

وأولئك جميعا بالنوبيين ، من أسوان حتى دنقلة . وانتشر الإسلام وتكونت المجموعات النوبية المستعربة ، التي لا تختلف في صفاتها الطبيعية وملاحمها عن النوبيين الحاليين وهم : الكنوز ، والفديجة ، والسكوت ، والمحس ، والداقلة .

لم يمض أقل من قرن على سقوط مملكة مقرة المسيحية ، حتى سقطت جارتها في الجنوب « علوة » . فقد كان لقطع العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية وكنائس علوة ، وتوقف إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة ، منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي أثر خطير في حياة النوبيين الدينية ، فأهملت الطقوس الدينية ، وهجرت الكنائس النوبية وضرب معظمها . وقد حفظ قسيس برتغالي يدعى ألفارز ، الذي زار الحبشة بين سنتي ١٥٢٠-١٥٢٧م ، صورة عن أحوال النوبيين (أهل علوة) الدينية ، أوائل القرن السادس عشر الميلادي بقوله « ... إن أولئك النوبيين مجهلون دينهم ، فلامهم بالمسيحيين ولاهم بالمسلمين أو اليهود . ويقال إنهم كانوا على النصرانية ، غير أنهم فقدوا دينهم ، ولم تبق لهم عقيدة . ويأملون أن يكونوا مسيحيين » . ويبدو من قول ألفارز ، أن النوبيين فشلوا في الحصول على قساوسة من كنيسة الإسكندرية ، فبعثوا إلى نجاشي الحبشة سنة ١٥٢٢م ، ليرسل إليهم من يرشدهم في دينهم . غير أن النجاشي اعتذر عن تلبية هذه الرغبة ، إذ أنه يعتمد على البطريك في بلاد المسلمين في إرسال « أبونا » ، فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره . ومما زاد في عزلتهم سقوط مملكة مقرة في الشمال ، واعتناق أهلها الإسلام . وذكر ألفارز تقلا عن بعض الأقباش أنه منذ وفاة أسقف النوبة (علوة) من أمد بعيد ، لم يخلفه غيره ، بسبب الحروب بين القبائل العربية في بلاد النوبة الشمالية (مقرة) . فتركت كنائسهم دون رعاية رجال الدين ، ففسدوا كل شيء عن المسيحية . وثم دليل على هجر النوبيين كنائسهم وتخريب معظمها ، ما ذكره ألفارز كذلك تقلا عن حنا السورى الذي زار علوة قبل ذلك بقليل حيث يقول « إنه كان بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعدراء » (١٥) .

(15: Father Francisco Alvarez : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia. p. 65, p. 352.

وهذا عدد قليل بالقياس إلى ما عرف عن عدد كنائس علوة ، حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، والتي بلغ عددها - على قول أبي صالح - حوالي ٤٠٠ كنيسة^(١٦) .

أما الروايات التاريخية الوطنية ، فأجمت على أن نهاية مملكة علوة وسقوطها ، أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) تم على يد جماعة من العرب والفونج . ويعنى هذا أن العرب وحلفاءهم ، استطاعوا أن يسقطوا هذه المملكة ، بفضل كثرتهم العددية ، أو أن أحوال هذه المملكة كانت اضمحلالية ، بحيث لم تقو على مواجهة ضغط هذه القبائل . وإذا سلمنا بصحة هذه الروايات التاريخية ، فيما يتعلق بدور العرب وحلفائهم ضد هذه المملكة المسيحية ، فإن هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه سبق سقوطها ، وصول جماعات عربية في أعداد وفيرة ، حتى تسنى لها طبع هذه البلاد وسكانها المسيحيين بطابع مخالف ، هو الطابع العربي الإسلامي .

وإذ أشار المؤلفون المسلمون إلى هجرة بعض القبائل العربية ، من مصر ، إلى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) ، وأوطان البجة ، فإن أحدا من أولئك المؤلفين - على ما نعلم - لم يشر إلى مثل هذه الهجرات العربية إلى بلاد علوة . بل إن أخبار هذه الهجرات ، واستقرار القبائل العربية وبتوطنها المختلفة فيها ، جاء من مصادر سودانية . وهي عبارة عن أوراق النسبة التي يحتفظ بها كثير من الأسرات السودانية في الوقت الحاضر^(١٧) .

فضلا عن ذلك ، فإن بعض الروايات التاريخية ، تشير إلى هجرة بعض الجماعات العربية عبر البحر الأحمر ، سواء أكان هذا قبل الإسلام أو بعده ، على أثر وقوع أحداث هامة في بلاد العرب . ومن بين هذه الأحداث ، تخريب سد مأرب ، واضطهاد قريش للمسلمين ، وحروب الردة ، والنزاع على الخلافة بين الأمويين

(١٦) أبو صالح - تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمني - نشر ليفت . ص ١٢٠

(١٧) جمع ماك ميكل معظم أوراق النسبة العربية في السودان ونشرها في مؤلفه الضخم

المعروف باسم A History of the Arabs in the Sudan II.

والعويين ، وسقوط الدولة الأموية كذلك . فالمعروف أن عدداً من المهاجر العربية استقرت في جهات متفرقة في منطقة النيل الأزرق والأتبرا والحبشة^(١٨) . وإذا كانت هذه الهجرات السابقة للإسلام، قليلة العدد ، محدودة الأثر ، فلا شك في أن أعدادها، زادت زيادة واضحة عقب الفتح العربي لمصر ، حتى سمح للعرب - المهاجرين أو المترددين على علوة للتجارة وغيرها - ببناء مسجد في سوبا^(١٩) .

وموضع الأهمية هنا، هل ظلت الجزيرة العربية، هي المصدر الوحيد لتلك الهجرات العربية الإسلامية ، إلى حوض النيل الأوسط ، عبر البحر الأحمر مباشرة ، أو كانت هنالك مصادر أخرى شاركت، أو انفردت بتعريب هذا الجزء من حوض النيل ؟ إن ثم رأياً يقول : هناك ثلاثة أبواب ، دخلت منها الدماء العربية ، ومعها الثقافة العربية إلى السودان - فالباب الشرقي من السودان كان واحداً من هذه الأبواب والباب الثاني هو الباب الشمالي، في وسط السودان، الذي يفضى إلى مجرى النيل أما الباب الثالث فهو الطريق الشمالي الغربي، أو الطريق الليبي ولعل هذا الباب لم يكن مصدراً للثقافة العربية إلا بعد الإسلام^(٢٠) . ويعنى هذا أن كلا من الجزيرة العربية ومصر ، كانا مصدراً للهجرات العربية ، التي حملت معها الثقافة الإسلامية ، إلى حوض النيل الأوسط . ومع تسليم الدكتور محمد عوض محمد بأهمية مصر ، كمصدر للثقافة العربية في وادي النيل الأوسط ، إلا أنه لم يقلل ، من أهمية الجزيرة العربية ، كمصدر مباشر للهجرات العربية ، التي قامت بنصيبها في نشر العروبة في هذا الإقليم . غير أن هنالك من يرى أن الجزيرة العربية كمصدر مباشر للهجرات العربية، إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة ، وبالتالي كمصدر للثقافة الإسلامية فيه كانت قليلة الأهمية ، ضعيفة الأثر ، بالقياس إلى المصدر الشمالي وهو مصر . فيقول

(١٨) انظر - ممالك النوبة المسيحية - اضمحلالها وسقوطها . ص ١١٣، ١٢٣

(١٩) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام - ص ١٠٠

(٢٠) محمد عوض محمد - السودان الشمالي - سكانه وقبائله ص ١٥٩ - ١٦٠ الطبعة

الأستاذ عمار : إذا نحن استثنينا تلك الجماعات العربية القليلة التي وصلت إلى السودان رأسا ، عبر البحر الأحمر ، سواء أكان ذلك قبل الإسلام ، أم زمن التوسع الإسلامي أم كانت هجرات حديثة كالتى أوصلت قبائل الرشايدة ، إلى حيث ينزلون الآن ، في الشمال الشرقى للسودان ، فإن تعريب السودان في الواقع إنما تم عن طريق مصر - إذ لا يسجل التاريخ - في أى عهد من عهوده ، وصول موجات هامة ، أو هجرات عنيفة إلى السودان ، عن طريق غير طريق مجرى النيل من الشمال إلى الجنوب^(٢١) ونجد للرأى الأخير تأييدا ، فيما ذكره ماك ميكل ، إذ يقول : إن بعض القبائل العربية في السودان تدعى أن أجدادها ، وصلوا من جزيرة العرب مباشرة ، إلى السودان ، عبر البحر الأحمر ، لتأييد دعواهم في الانتساب إلى أصل شريف ، أموى أو عباسى ، أو أنهم سلالة بعض صحابة رسول الله . ومع التسليم بوصول بعض الأمر العربية ، من حين إلى آخر ، عبر هذا الطريق ، إلى السودان ، إما للتجارة ، أو اتخاذه مكان هجرة ، أو بحثا عن الراعى كما فعلت قبيلة الرشايدة حديثا ، فإن التاريخ لم يسجل وصول هجرات واسعة ، عبر هذا الطريق ، مثلما سجل عن هجرة هذه القبائل العربية إلى مصر^(٢٢) .

وكيفما كان الأمر ، فالعروف ، أن كثيرا من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبا ، حيث استقرت في بلاد النوبة الشمالية ، وأرض البجة ، عقب الفتح العربى لمصر واختلطت الجماعات بعضها ببعض ، اختلاطا كان يغذيه وصول القبائل وسكناها بين النوبيين والبجة ، حينما بعد حين ، ولاسيما بعد منتصف القرن التاسع الميلادى . وزادت جموع العرب المهاجرين ، من مصر جنوبا زيادة واضحة ، عقب قيام السلطنة المملوكية في مصر ، في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، ثم سقوط مملكة مقرة المسيحية ،

(٢١) عباس عمار : وحدة وادى النيل : أسسها الجغرافية ومظاهرها في التاريخ .

(٢٢) Hamilton, J. A. de C. ed : The Anglo Egyptian Sudan from Within. «The coming of the Arabs in the Sudan» by Mac-Michael pp. 46-47.

بعد ذلك في يد العرب ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادى . ومرجع ذلك في الغالب - على قول ماك ميكل - أن أولئك العرب لم يطب لهم المقام في مصر ، ولا سببا بعد أن فقدوا ميزاتهم القديمة . وأصبح ينظر إليهم كعنصر غير مرغوب في بقائه . فاستبدلوا بقوات حربية نظامية مدربة لأنهم لا يجيدون سوى شن الإغارات للحصول على الغنائم ، فضلا عن مماطلتهم في دفع الضرائب وإثارة القلاقل . وفي القرن الرابع عشر أصبح ينظر إليهم على أنهم خارجون على القانون . ثم إن رغبة العرب في العيش عيشة البداوة والحرية - التي تعودوها في بيئتهم الأصلية والبحث عن مراع واسعة تناسب حياة الإبل والأغنام ، والتي لا يتوفر وجودها في مصر - دفعت بالعرب إلى الهجرة جنوبا ، حيث البيئة الرعوية، التي تشبه بعض جهاتها البيئة الأصلية في الجزيرة العربية هذا فضلا عن رغبتهم في الحصول على الرقيق^(٢٣) . ثم إن السلطنة المملوكية سمحت لأولئك العرب بالرحيل من مصر ، وأكثر من هذا ، أنها أمعنت في مطاردتهم جنوبا مقرة ذاتها ، بدليل ما ذكره النويرى أن حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦١٧ هـ (٣١٧ م) ، ضد العرب الذين يسكنون حول عيذاب ، لاعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلى السلطان المملوكى . وأوغلت هذه الحملة جنوبا حتى سواكن ، واتجهت غربا إلى التاكة ، وإلى جهة الأبواب ، ثم عادت إلى مصر عن طريق دنقلة^(٢٤) .

والواضح تماما ، أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر للميلادى أدى إلى ازدياد موجة الهجرات العربية ، ولاسببا بعد أن بات السابقون من العرب في شغل بمنازعاتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد . وربما كان أشد هذه الهجرات الجديدة عنفا هجرة جهينة التي أشار إليها ابن خلدون^(٢٥) ، وهي واحدة من خليط هائل من

(٢٣) Hamilton, ed : op. cit. 47-50.

(٢٤) النويرى - نهاية الأرب مخطوطة ج ٣٠ - ص ٩٦-٩٧ - المقرئى : السلوك ج ٢

القسم الأول ص ١٦٢

(٢٥) ابن خلدون : العبر ج ٥ . ص ٤٢٩

القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختافة ، التي تجمعت في أنحاء النوبة الشمالية . ونشأت على أثر ذلك بعض المهاجر العربية قرب سنار الحالية . والراجح أن معاينة هذه الجماعات للمراعى الغنية ، ترامت أخبارها إلى ذويهم في الشمال ، فاندفعت جموعهم جنوبا ، ولاسيما أولئك الذين حافظوا على بداوتهم بعد أن ضاقت بهم مهاجرهم في النوبة الشمالية ، بسبب فقر بيئتها وندرة مراعيها^(٢٦) .

لكن كيف شق أولئك المهاجرون طريقهم نحو الجنوب ؟ هل اضطروا إلى شن الإغارات على الوطنيين ، والدخول في حرب ضد مملكة علوة المسيحية ؟ يقول ابن خلدون : « وانتشروا (أى جهينة) ، ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكثروا هنالك سائر الأمم ، وغابوا على بلاد النوبة ، وفرقوا كلمتهم ، وأزالوا ملكهم ، وحاربوا الحبشة فأرهبوهم إلى هذا العهد »^(٢٧) . والفهوم من هذا ، أنه بعد سقوط دنقلة في يد العرب ، أضحت المنطقة الممتدة من حلفا الحالية إلى شمال غربي الحبشة مسرحا لأعمال النهب والتخريب مدة لا تقل عن ثلثمائة عام^(٢٨) . وأن العرب في تقدمهم جنوبا ، قتلوا كثيرا من النوبيين ، وأسروا بعضهم ، حتى اضطر كثير من النوبيين إلى الهجرة غربا إلى تلال نوبا في جنوب كردفان ، وجبل حرزا وكاجا وغيرها في شمال كردفان^(٢٩) . غير أنه يبدو أن العرب ، لم يقابلوا في تقدمهم جنوبا إلى جهات علوة وغيرها مقاومة عنيفة ، لعجز ملوكها عن دفعهم . وإذا كانوا اضطروا أحيانا إلى استخدام العنف ، فإن الطابع العام لهذه الهجرات ، كان طابعا سلميا . ونجحوا في تحقيق مآربهم ، لا بجد السيف بل بالاختلاط والتزاوج من بنات النوبيين وملوكهم . ويقول

Triminghn, J. s : Islam in the Sudan, p. 71. (٢٦)

(٢٧) ابن خلدون - نفس المصدر ج ٢ . ص ٢٤٧

Walkely, C. E. J. : «The story of Khartoum», Sudan Notes and Records. Part II, 1935, p. 124.

Sager, J. W. Notes on the history, religion, and customs (٢٩) of the Nuba. Sudan Notes and Records, V, part, III, p. 139

ماك ميكل « إن الدلائل تشير إلى أن النصر - باستثناء أقاليم معينة كإقليم جبال النوبة حيث لا يزال العرب يمتلكون السهول ، على حين يسكن الزوج التلال - قد تم غالبا بالاتفاق والتزواج أكثر مما اكتسب بقوة السلاح . ويمكن القول إن الظاهرة الأساسية في التاريخ الجنسي لشمال السودان ووسطه ، منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، كانت ظاهرة الاندماج التدريجي بين العرب والسود»^(٣٠).

لاشك أن لهذا الرأي وجهته ، فهو يتفق وما ذكره ابن خلدون في صدد هجرة جهينة إلى بلاد النوبة (علوة) . فيقول ابن خلدون ، « ... ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم ، واستوطنوها ، وملكوها ، وملئوها عبثا وفسادا . وذهب ملوك النوبة (في علوة) إلى مدافعهم ، فعجزوا ، ثم صاروا إلى مصانعتهم بالمصاهرة^(٣١) » . أما عن اضطراب الأمن في بلاد النوبة وأوطان البجة حتى الحدود الحبشية ، فكان بسبب النزاع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر . وتشير بعض الروايات التاريخية ، إلى وجود مثل هذا النزاع ، بين قبيلتي جهينة ورقاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادي قرب عيذاب . ولعل في إشارة ابن خلدون إلى انقسام العرب على أنفسهم ، ما يزيد فهمنا لما صار إليه هذا الجزء من حوض النيل ، أوائل القرن الخامس عشر الميلادي . إذ يقول « واستولى أعراب جهينة على بلادهم (أي النوبيين في علوة) ، وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية ، للآفة التي تمنع انقياد بعضهم إلى بعض . فصاروا شيئا لهذا العهد^(٣٢) » . أما ما ذكره بعض المؤرخين من التجاء بعض العناصر النوبية إلى جبال جنوب ووسط كردفان ودارفور ، هربا من مذابح العرب ، فليس هنالك ما يؤيده . والراجح كما يقول ماك ميكل ، أن أولئك المهاجرين ، من بلاد النوبة الشمالية ، عقب سقوط دنقلة ، إلى جهات كردفان ودارفور ، لم يكونوا نوبيين خلصا ، بل كانوا يمثلون خليطا من العرب والنوبيين (النوبيين المستعربين) .

(٣٠) Hamilton, ed : op. cit. p. 59

(٣١) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٥ - ص ٤٢٩

(٣٢) المصدر السابق

ومن هؤلاء سكان جبل ميدوب في شمال دارفور والتنجور والبرقد كذلك^(٣٣) .
أما عن الطرق والمسالك التي سلكتها الجماعات العربية المختلفة ، إلى حوض
النيل الأوسط ، فمن بينها الطريق الذي يتجه جنوبا بشرق من أسوان وكرسكو عبر
أوطان البجة ، الموازية للبحر الأحمر . غير أن أهمية هذا الطريق ، محدودة بالقياس
إلى الطرق الأخرى ، لقلة الماء وفقر المرعى . والغالبية العظمى من العرب المهاجرين ،
من مصر إلى حوض النيل الأوسط سلكت الطريق الذي يتبع مجرى النهر إلى
منطقة دنقلة . وإذا كانت بعض القبائل آثرت أن تستقر على جوانب النهر ، فإن منها
من انتقل غربا بطريق وادي القعب ، ونزل الأراضي المحيطة به . وسلك الآخرون
الطريق الذي يبدأ من كورتى على طول وادي مقدم ، وعبر الدية على طول وادي الملك
إلى كردفان ، حيث تتفرع الهجرات على شكل الروحة . فمنها ما يتحرك إلى دارفور ،
وما يليها غربا وجنوبا ، ومنها ما يسير على جوانب النهر الأعظم ، وعبر صحراء بيوضة
وأعلا الأتبرا ، والنيل الأزرق في اتجاه جنوبي شرقي إلى حدود الحبشة^(٣٤) .

وثمة رأى آخر يقول : إن الجماعات العربية التي هاجرت من مصر جنوبا إلى
السودان ، بطريق النيل ، لم تلازم النهر في كل جزء منه . بل سلكت طريقاً يتابع
النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو ، أو قبلها . ثم يمتد نحو صحراء العثمور مباشرة إلى
أبو حمد ، حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلتزمه نحو الجنوب^(٣٥) . غير أن هذا
الطريق ، إذا صح وسلكته بعض الجماعات العربية ، فلا بد وأن يكون هذا حدث
قبل سقوط دنقلة ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، لمنع العرب أو غيرهم من غير
النوبيين ، التقدم جنوبي الشلال الثاني إلا للتجارة . وبسقوط دنقلة ، انفتح الباب

Mack Micheal, H. A. : «Nubian elements in Darfour», (٣٣)
Sudan Notes and Records, I, part, I, 1918, p.44.

Hamilton, ed. : op. cit. p. 55. (٣٤)

(٣٥) محمد عوض محمد - السودان الشمالي . ص ١٦٠-١٦١

أمام الجماعات العربية المختلفة للانسياب جنوباً على طول النهر ، الذي كان دائماً الطريق الطبيعي للهجرات منذ فجر التاريخ ، وذلك لإحاطته بصحراء قاحلة جرداء . على حين أن واديه الضيق يسمح بمرور القطعان ، حيث يوجد الماء والعشب كذلك (٣٦) .

اشتملت الجماعات العربية التي هاجرت إلى حوض النيل الأوسط على المجموعتين العربيتين : وهما مجموعتا العدنانيين والقحطانيين ، ويمثل العدنانيين في الوقت الحاضر الكواهلة والمجموعة الجعلية ، وبعض القبائل الصغيرة الأخرى كالرشايدة . ويمثل القحطانيين ، المجموعة الجهنية . إذن متى دخلت هذه الجماعات العربية حوض النيل الأوسط . وكيف تم انتشارها على هذه الصورة ؟ إن أول إشارة إلى بني كاهل وردت في رحلة ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن ، في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٥٣ م) . فذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن . وهم مختلطون بالبجة عارفين بلسانهم (٣٧) . وليس من المعروف تماماً ، متى استقر أولاد كاهل بين البجة . والراجح أن هجرتهم إلى هذا الإقليم سابقة لهذا التاريخ (منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) ، بدليل معرفتهم لغة البجة .

ويقال إن الكواهلة ينتسبون إلى كاهل بن أسد بن خزيمة . وأنهم جاءوا إلى السودان من جزيرة العرب مباشرة ، عبر البحر الأحمر ، واستقروا في الإقليم الساحلي ، بين سواكن وعيذاب (٣٨) . غير أنه لا يوجد من الدلائل ما يؤيد هذه الصلة المباشرة بالجزيرة العربية . والأرجح أن هجرة أولاد كاهل كانت عن طريق مصر . إذ تقول روايات العباد ، أنهم ينتسبون إلى عباد من نسل الزبير بن العوام . وأن جدّهم عبادة قدم من جزيرة العرب إلى مصر ، في القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم مات ودُفن

Firth, C. M. : The Archaeological Survey of Nubia, (٣٦)
Report 1910-11. p. I.

(٣٧) ابن بطوطة - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . ج ١ ص ١٥٤

(٣٨) محمد نعوض محمد - السودان الشمالي . ص ١٤٣

في وادي عباد قرب أدفو . وأن عباداً هذا جد كاهل^(٣٩) . ومن ذريته أولاد كاهل الذين أشار إليهم ابن بطوطة . واختلط أولاد كاهل بالبجة ، عن طريق المصاهرة ونالوا مراكز الزعامة فيهم . وعلى الرغم من أن كثيراً من الجماعات العربية اختلطت بالبجة ، وتصاهرت معهم ، منذ القرن التاسع الميلادي ، حتى اعتنق كثير منهم الإسلام ، فإن البشاريين والأمرار وبنى عامر ، ينتسبون كذلك إلى كاهل ، مما يدعوننا إلى الاعتقاد ، أنه كان لبني كاهل الأثر الأكبر في نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم^(٤٠) .

ومن المؤكد أن أولاد كاهل ، عاشوا زمناً في الأقاليم الساحلية الشرقية ، والناطق التي تليها ، واشتغلوا بالتجارة وتنظيم القوافل ، بين النيل والبحر الأحمر . ثم انتشروا انتشاراً تدريجياً نحو الغرب ، وعرف هؤلاء جميعاً باسم الكواهلة . ويمكن تقسيم هذه الحركة كلها إلى مراحل ، تمثل الأولى منها نزولهم في الساحل واستقرارهم فيه في القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث رأهم ابن بطوطة ، مختلطين بالبجة في منتصف القرن الرابع عشر . وتمثل المرحلة الثانية ، انتقال شعب منهم إلى جهات أتبرا والنيل الأزرق ، في القرن الخامس عشر الميلادي ، واحتشدوا فيه . وتمثل المرحلة الثالثة ، انتقال جماعات منهم آتية من الشرق ، ونزحت إلى جهات النيل الأبيض ، ثم إلى كردفان في أزمنة متعاقبة . وبهذا أضحي للكواهلة أوطان ثلاثة : أولها في منطقة الأتبرا والنيل الأزرق ، والثانية في منطقة النيل الأبيض ، والثالثة في كردفان . والواضح أن معظم هذه الأوطان ، التي استقروا فيها ، منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، على الأقل ، كانت جزءاً من مملكة علوة المسيحية وعاصمتها سوبا . غير أنه لم يصلنا شيء عن تاريخ هذه المرحلة من تاريخهم . ومع هذا فإن القليل الذي عرف عن رواياتهم وقصصهم في وقت متأخر (القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد) - ولاسيما شعبة النيل الأبيض - يدل على أنهم استعملوا الحيلة أحياناً والحرب أحياناً أخرى ،

Hurray, G. W. : Sons of Ismail, p. 30. (٣٩)

(٤٠) محمد عوض محمد - السودان الشمالي . ص ١٤٤

لتوطيد أقدامهم . وتدل الأمثلة السائرة عند بعض شعبيهم ، أنهم اتبعوا سياسة يبدو أنها متأصلة في بني كاهل ، وهي أن ينزلوا غرباء ، ويدفعوا لأصحاب البلاد أجراً عن الأراضي التي يحتلونها . حتى إذا كثر عددهم ، ادعوا الحق فيها ، والتجأوا إلى القوة لإثبات حقهم (٤١) .

أما المجموعة الجعلية ، فتركزت على النيل الأعظم ، من جنوب الخرطوم الحالية ، حتى دنقلا . وتمثل هذه الشقة من النهر المركز الرئيسي ، الذي انتشرت منه في شعب وفروع نحو البطانة ، والنيل الأزرق ، والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ، ونحو الغرب إلى كردفان . وفي الشمال حيث يعيش بعضهم ، مثل الجواربة والركابية وسط الجماعات النوبية .

وليس من المعروف تماما ، متى بدأت هجرة هذه الجماعات ، إلى حوض النيل الأوسط ، ومن الجائز استنادا على بعض الروايات الوطنية ، أن تكون بدأت هجرتها من مصر ، إلى هذا الإقليم ، منذ حوالي أواخر القرن العاشر الميلادي (٤٢) ، سالكة طريق العمور ، لتجنب مملكة مقرة المسيحية . ثم لحق بها عدد كبير في العهد المملوكي ، ولا سيما بعد سقوط دنقلا ، سالكين طريق النيل من الشمال إلى الجنوب ، حيث استقروا في أوطانهم الحالية ، على النيل الأعظم .

ويقال إن الجعليين ينتسبون إلى إبراهيم الملقب بجعل ، من نسل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم . وترجع أسباب هذه التسمية إلى أن إبراهيم هذا ، كان جوادا مضيافا . وأنه كان يقول للوطنيين وغيرهم من العرب « إنا جعلناكم منا (٤٣) » ، أي أصبحتم منا .

(٤١) المصدر السابق ص ١٥٠ وانظر Reid, J. A. «Some Notes on the Tribes of White Nile Province» Sudan Notes and Records, XIII, part II, pp. 149-210

Mac. Michael, H.A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, (٤٢) II, p. 348.

Ibid : op. cit. I, p. 197. (٤٣)

وتدل هذه العبارة وكثرة ترديدها ، أن التوغل العربي في هذه المنطقة ، كان توغلا سلميا ، مبنيا على التودد إلى السكان الوطنيين . ويقول ما كإيكل إن انضواء كثير من الجماعات العربية ، وغيرها من الوطنيين تحت لوائه ، جعل ذريتهم من هذا الخليط يدعون جميعا النسب إلى العباس (٤٤) .

والراجع أن الجعليين ، لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة ، بل مجموعة قبائل ذات نسب متقارب . وهاجرت على دفعات وعلى مدى قرون ، وبسطت نفوذها على هذه الجهات قطرا بعد قطر ، إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية ، تولت الزعامة ووحدت القبيلة ، فضلا عن إدماج المجموعة كلها بعضها في بعض ، وإدماج السكان الأصليين في المجموعة العربية (٤٥) .

وتشتمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل ، منها الجعليون الأصليون الذين ليس لهم اسم آخر . وتمتد مواطنهم من خائق سبلوقة إلى الأتبرا - والميرقاب إلى شمال الأتبرا ، حول بربر - والرباطاب من بربر إلى أبو حمد - والناصر من أبو حمد إلى آخر الشلال الرابع - والشايقية ، من الشلال الرابع إلى إقليم الدبة - والجوابة (بنى جابر) ، بين الدناقلة والمحس - والركابية ، ويشك في نسبتهم إلى الجعليين ، وهم من العرب الشماليين ، ومواطنهم وسط بلاد المحس - والجموعية وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان إلى حدود الكواهلة - والبديرية وبعضهم في النوبة والبعض الآخر في كردفان . هذا فضلا عن قبائل أخرى مبعثرة بين كردفان والنيل الأبيض والبطانة (٤٦) .

وتمت ظاهرة توجب الالتفات ، وهي أن الإقليم الذي تحتله المجموعة الجعلية على النيل من جنوب الخرطوم حتى دنقلة ، غلبت عليه الصبغة العربية والثقافة العربية ،

Ibid. S. N. R. , I, 1918, p. 13. (٤٤)

(٤٥) محمد عوض محمد - نفس المصدر ص ٢١١

(٤٦) المصدر السابق ص ١٦٨

مما يدل على أن هذه الجماعات التي هاجرت إلى هذا الإقليم ، على مدى القرون ، كانت قوية كثيرة العدد ، حضرية لا تميل إلى حياة البداوة . ولهذا فضلت الاستقرار في مدن على طول النيل . على حين أن غيرها من الجماعات التي حافظت على بداوتها ، انتشرت غربا وشرقا وجنوبا في طلب حاجات الرعي .

والمجموعة العربية الثانية - في حوض النيل الأوسط ، بعد الجعليين من حيث عدد القبائل والبطون - هي المجموعة الجهنية التي تدعى الانتساب إلى عبد الله الجهني . وإذا كان يشك في صحة هذه النسبة ، فإن جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية ، التي عاشت حول ينبع من حوالي ١٣٠٠ سنة . ومن هذا المركز توالى هجراتها إلى مصر . ثم توالى هجراتها جنوبا إلى بلاد النوبة ، وأوطان البجة ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادي . وانتشرت جماعات من جهينة في أوطان البجة حتى وصلت سواكن في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي . بدليل ما أشار إليه المقرئى ، من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) ، قرب سواكن^(٤٧) . ثم انتشروا جنوبا إلى أرض الحبشة . ولا بد أنها كانت من القوة بحيث يقول عنها ابن خلدون ، إنها حاربت الحبشة وأرهمتها حتى هذا الحين ، وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادي .

أما الجماعات الجهنية التي انتقلت إلى أرض مقرة ، فإنها احتشدت فيها ، حتى إذا كان منتصف القرن الرابع عشر ، أخذت في الانتشار جنوبا متتبعه مواقع الفيث . ويدل هذا على أن جهينة سلكت في تقدمها جنوبا مسالك مختلفة ، أهمها الطريق الشرقى عبر أوطان البجة ، والآخر طريق النيل . ومنها احتلت أقاليم موزعة بين الأتبرا والنيل الأزرق شرقا ، إلى أقاصى دارفور غربا .

وتنقسم القبائل الجهنية في حوض النيل الأوسط إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الأولى وتشمل رفاعة (ومعها أقرباؤها من القواسمة والعبداللاب والمركيين وغيرهم) -

واللحويين - والحلويين - والعوامرة - والخوالدة - والشكرية . ومواطنهم جميعا في أقاليم النيل الأزرق والبطانة ، أى في النصف الشرقى من السودان . وتشتمل المجموعة الثانية على دار حامد - وبني جرار - والزيادية - والبزعة - والشنابلة - والمعاليا . ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة . ويعيشون في المنطقة الوسطى والشرقية من كردفان . أما المجموعة الثالثة فتشتمل على الدويحية - والمسلمية - والبقارة - والمحاميد - والماهرية - والكبايش - والمغاربة (الذين جاءوا من المغرب) - والحمر . وهم منتشرون في كردفان ودارفور (٤٨) .

ومن الضرورى أن نشير هنا إلى أن هذا الانتشار الواسع ، لم يتم دفعة واحدة ، بل استغرق عدة قرون . وأن هذه الجماعات استقرت على شكل مجموعات متفرقة تحت سلطان ملوك علوة ، محافظة على نظامها القبلى (٤٩) . ثم اشتد ضغط أعراب جهينة ، على ملوك علوة الذين حاولوا دفعهم أو صدمهم - على قول ابن خلدون - ولما لم يستطيعوا لهم دفعا استمالوهم إليهم بالمصاهرة . فانتقل الملك إلى أبناء جهينة من بنات ملوك علوة ، حسبما يقضى به نظام الوراثة المعروف عند النوبيين جميعا ، « فافترق ملكهم حتى هذا العهد » : (أى القرن الخامس عشر الميلادى) .

والمعروف أن مملكة علوة المسيحية تألفت من عدة ممالك صغيرة خاضعة للملك الكبير فى سوبا . وهذه الممالك الصغيرة ، هى التى انتقل سلطانها - دون سلطان الملك الكبير - إلى أبناء جهينة . ويذكر الدمشقى (١٢٥٦ - ١٣٢٧ م) أن ملك علوة يسكن مدينة تسمى كدسة (٥٠) ، لامدينة سوبا الماصمة القديمة . وليس من المستبعد أن يكون ملك علوة ، اضطر أمام ضغط الجماعات العربية المختلفة - ومن بينها جهينة - إلى نقل مقر ملكه ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ، على الأقل ، إلى مدينة كدسة

(٤٨) محمد عوض محمد - نفس المصدر - ص ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥

(٤٩) Morie, L. G. : Histoire de l'Ethiopie, La Nubie, Tome 1ere, p. 413.

(٥٠) الدمشقى - كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٦٨

في الغرب ، وأخذها عاصمة جديدة له وبهذا تكون سوبا فقدت مركزها القديم
كعاصمة لملكة علوة . فاضمحلت شأنها وخربت دورها .

وعلى الرغم من انتقال العاصمة من سوبا إلى كدسة ، واستيلاء القبائل العربية على معظم
أقاليم علوة ، فإن هذا لا يعني سقوط تلك المملكة ، حتى القرن الخامس عشر الميلادي -
على الأقل . ذلك بأن العرب لم ينشئوا حكومة مركزية تخضع لها سائر الأقاليم ،
لأسباب واضحة ، منها : « عدم انقياد بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعة لهذا (٥١)
العهد » .

والواضح تماما أن قبائل جهينة لم تكن الوحيدة التي أفادت من تداعي مملكة
علوة وانحلالها . بل شاركتها القبائل العربية الأخرى ، التي استقرت في جهات متعددة
من مملكة علوة . وعلى هذا نشأت في جوفها عدة إمارات عربية مستقلة . ويذكر
القلقشندي أن من بين الإمارات التي نشأت في أوطان البجة حتى الحدود الحبشية ،
وبلاد النوبة كذلك ، ثماني إمارات ، كان بين أمرائها والسلطنة المملوكية في مصر
مراسلات في القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) (٥٢) .
غير أنه ليس من الواضح تماما إن كانت هذه الإمارات ، يقع بعضها في إحدى جهات
علوة ، أو قريبا منها .

وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، على الأقل ،
ظهرت عدة ممالك ومشيخات إسلامية في حوض النيل الأوسط (٥٣) ، وكان لظهورها
أثر خطير في تطور الحياة الاجتماعية والسياسية كذلك ، مما ساعد على زوال بعض
الأسس التي قامت عليها الملكية المسيحية في علوة . ذلك أن اختلاط العرب المهاجرين
بالسكان الوطنيين ، ساعد على إزالة بعض التقاليد الاجتماعية القديمة ، ولاسيما بعد
اختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة . فنال الفرد حريته في ظل التقاليد القبلية العربية ،

(٥١) ابن خلدون - نفس المصدر ج ٥ ص ٤٢٩

(٥٢) القلقشندي - صبح الأعشى ج ٨ ص ٥ - ٦

(٥٣) نعوم شقير - تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . ج ٢ ص ١٠٣-١٠٧

وأضحت الأرض ملكا للجماعة القبلية، بعد أن كانت ملكا خاصا للملك. وصارت الأرض توزع على الجماعة؛ يقومون على استغلالها ودفع الضريبة عنها لشيخ القبيلة أو زعيم الدار. ويعنى هذا الدور من التطور - الانتقال من مرحلة الإقطاع المطلق، إلى نظام يعطى للفرد نصيبا من جهوده .

وتم تطور آخر، طرأ على الحياة السياسية. وذلك أن الحكم أصبح وراثيا في بيت شيخ القبيلة أو الدار. وتكونت من مجموعات القبائل - في الإقليم الذى اتخذته دارا لها - زعامات إقليمية تولاها شيخ المشايخ. وهو عادة شيخ أقوى قبيلة في المجموعة. وعرف باسم الملك أو المانجل^(٥٤). وبهذا اختفى نظام الوراثة القديم - أى نظام الأمومة .

ولعل أهم أثر لقيام هذه الشيخات الإسلامية في حوض النيل الأوسط، هو ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد. وذلك أنه لما رأت القلة التى بقيت على النصرانية أن لا أمل لها في قيام حركة للإصلاح في مجتمعهم، بسبب انقطاع علاقاتهم الدينية بكنيستهم الكبرى في الإسكندرية، كان من الطبيعى أن ينشدوا ما يسد رمقهم الروحى في الدين الإسلامى، الذى دل بين أتباعه منهم على قوة وحيوية. وعلى الرغم من تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في هذا الجزء من وادى النيل، فإن هذا لم يؤد إلى استقرار الأحوال فيه، بسبب اختلال الأمن، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية، وبين الوطنيين من ناحية أخرى^(٥٥) مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية. وزاد الأمور تعقيدا، تعطيل التجارة بين هذه البلاد وبين مصر، واختلال سير القوافل بينهما، بسبب اضطراب الأحوال في منطقة النوبة الشمالية. ولهذا الأسباب ظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية تخضع لهاشتى الجماعات والقبائل المتنازعة، لإقرار الأمن وحماية طرق التجارة القديمة، وتذكر

(٥٤) الشاطر بصيل عبد الجليل - معالم تاريخ السودان وادى النيل ص ٥١

(٥٥) نعوم شقير - نفس المصدر ج ٢ ص ٧٢

المراجع الوطنية ، أن عمارة دونقس زعيم الفونج ، جمع رجاله في جبل مويبا . ثم تحالف مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وأصحابه الآخرين ، على إخضاع ملك الفنج وملك الغرب . ودارت في أريجي ، معركة . سنة ٩١٠هـ (١٥٠٥م) ، انتصر فيها الحليفان ، وفر الفنج إلى جبال فازوغلي وكردفان ، ومن بقى منهم اختلط بالغزاة واعتنق الإسلام^(٥٦) .

أما الفونج ، فاختلف المؤرخون حول أصلهم . ورأى البعض أنهم شعبة من الشلك ، مستندين في هذا على ما ذكره بروس الرحالة الإسكتلندي الذي زار سنار سنة ١٧٧٢م^(٥٧) ، وقيل إنهم قوم أتوا من الغرب ، ويحتمل أن يكونوا فرعا من الأسرة المالكة في مملكة برنو^(٥٨) . وشم رأى ثالث يقول إنهم هجرة عربية دخلت السودان من الحبشة بطريق النيل الأزرق^(٥٩) . أما الفونج أنفسهم ، فيقولون إنهم من ذراري الأمويين ، الذين لجأوا إلى ملك الحبشة ، فرارا من بني العباس^(٦٠) .

وكيفما كان الطريق الذي سلكه الفونج إلى جزيرة النيل الأزرق ، أو درجة الصحة في انتابهم إلى العرب عامة ، أو بني أمية خاصة ، فوضع الأهمية في الواقع ، في هذه المرحلة من تاريخ الفونج ، أن أولئك القوم - سواء هبطوا أرض الجزيرة من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب - عرضوا أنفسهم على قاعدة أنهم عرب ، ووافقهم الناس على نسبتهم هذه ، لاسيما وأنهم لم تكن لهم لغة سوى العربية ، أو يديون بدين سوى الإسلام .

وتدل شروط الحلف بين الحليفين ، عمارة وعبدالله ، أيكون عمارة هو المقدم على زميله

(٥٦) أحمد كاتب الشونة - تاريخ ملوك السودان . ص ٢

(٥٧) Arkell, A. J. : «Fung Origins» SNR, XV, II, pp. 208-243

(٥٨) Arkell, A. J. : A Hist. of the Sudan, p. 206.

(٥٩) Chatway. J. O. P. : «Notes on the Hist. of the Fung» . (٥٩)

SNR. XIII, II, pp. 247-257.

(٦٠) Mac. Michael. H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, (٦٠)

II, B. A., pp. 36-37

في الزعامة وحمل لقب ملك . وأن يحل عبد الله محله مدة غيابه . أي أنه كان بمثابة نائب ملك ، وحمل لقب شيخ . وظل هذا النظام ، الذي وضع أساسه الحليفان ، إلى أولادها من بعدها .

أخذ عبد الله مدينة قري (قرب خانق سبلوقة) مقرانه ، واختط عمارة مدينة سنار ، لتصبح عاصمة مملكة الفونج ، التي امتدت مساحتها من سواكن شرقا إلى النيل الأبيض غربا ، ومن أقصى جبال فازونجلي جنوبا ، إلى الشلال الثالث شمالا أي أنها اشتملت على معظم النوبة العليا (علوة) وقسم كبير من بلاد النوبة الشمالية (مقرة) . وأضحت مدينة أريجى (قرب المسلمية) الحد الفاصل بين نفوذ عبد الله ، الذي امتدت سلطته على جميع الوحدات القبلية حتى حنك (شمال دنقلة) على حين أن سلطة عمارة امتدت على ما يلي هذه الأقاليم جنوبا . هذا ولم يباشر ملوك سنار ، أو حلفاؤهم في قري سلطاتهم على مملكة الفونج بصفة مباشرة . بل عن طريق المكوك (شيوخ القبائل) ، الذين تمتعوا بشيء من الاستقلال ، على أن يدفعوا الضرائب المقررة لخزانة الملك في سنار . واحتفظ ملوك سنار وحلفاؤهم في قري ، بحق تنصيب الملك أو المانجل ، من بين أفراد أسرة الملك المتوفى (٦١) .

وفي أيام عمارة ، امتد النفوذ العثماني إلى الشام ومصر . وقام العثمانيون بعملية تأمين الحدود الجنوبية ، على غرار ما فعل جميع السابقين . غير أن الامتداد العثماني ، اهتم بالناحية البحرية ، لأن استيلاء العثمانيين على مصر ، كان مختلطا في عوامله ودوافعه بما لمصر من سيطرة على تجارة البحر الأحمر . وكانت تلك التجارة مهددة تمام التهديد من ناحية البرتغاليين . وهذا هو تفسير اهتمام العثمانيين بالناحية الجنوبية ، مما جعلهم يقيمون قواعد في سواكن ومصوع سنة ١٥٢٠ م . وخشى عمارة من هذا الامتداد العثماني من ناحية البحر . فبعث إلى الباب العالي ، يذكر له أن دولته إسلامية ، وأن رعيته عرب بادية ، لا يملكون ما يصلح لدفع الجزية للسلطان . وعزز عمارة

هذه الرسالة بكتاب يحوى أنساب قبائل العرب في مملكته . جمعه له السمرقندى ، أحد علماء سنار . ويقال إن السلطان العثماني ، اقتنع بصحة ما تضمنته هذه الرسالة ، فعدل عن حرب سنار^(٦٢) .

هكذا تم ميلاد هذه الدولة الإسلامية ، أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، على أنقاض مملكة علوة المسيحية . غير أن المعروف أن هذه الدولة اشتملت على عناصر مختلفة ، عربية وحامية وشبه زنجية ، فضلا عن خليط منها جميعا . وهي ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك . ويصف صاحب الطبقات حال هؤلاء وأولئك جميعا ، عقب تأسيس مملكة الفونج بقوله : « اعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة ، وتغلبت عليها أول القرن العاشر ، سنة عشر بعد التسعمائة (١٥٠٥ م) ، وخطت مدينة سنار ، ولم تشهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . يقال إن الرجل يطلق المرأة ، ويتزوجها غيره في نهاره من غير عدة »^(٦٣)

تصور هذه الحالة ، التي وصفها صاحب الطبقات ، نوع الثقافة ، التي سادت جهات حوض النيل الأوسط ، أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وهي تدل دلالة واضحة ، على اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية فشارك المهاجرون أهل البلاد الأصليين ، في الجهل بقواعد الإسلام . ومرجع هذا في الغالب ، إلى أن الدعوة الإسلامية لم تكن تهتم حتى هذا الوقت بشرح تفاصيل الأسس التي يقوم عليها الإسلام بل كانت هذه الدعوة مجملة مبسطة ، ليسهل على دعايتها ، نشر عقيدتهم بين أهل البلاد من ناحية ، وبسط نفوذهم عليهم من ناحية أخرى . هذا والمعروف أن معظم أولئك المهاجرين ، كانوا على حاله من البداوة ، ففسوا الكثير من تعاليم الدين ، لبعده صلتهم بمواطن العلم والعلماء .

(٦٢) نعوم شقير - نفس المصدر - ج ٢ ص ٧٣ - ٧٤

(٦٣) محمد ضيف الله - طبقات ود ضيف الله - نشر إبراهيم صديق ص ٥

(٦٤) عبد المجيد عابدين - دراسات سودانية . ص ٣

غير أن بعض المصادر الوطنية تشير إلى وجود نوع من النشاط الثقافي ، في بلاد النوبة ، قبل قيام السلطنة السنارية . ومن الأمثلة على هذا ، ما تذكره إحدى الوثائق أن غلام الله بن عايد اليمنى الأصل ، هبط أرض دنقلة ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي واستقر فيها ، لأنها كانت في غاية الضلالة والحيرة ، لافتقارها إلى العلم والعلماء . فعمل غلام الله المساجد ، وعلم أبناءه وتلاميذه من أبناء المسلمين تلاوة القرآن ، وعلمهم كذلك بعض العلوم الأخرى^(٦٥) . ثم ظهر في نواحي أبي حليمة على النيل الأزرق - قبل قيام السلطنة السنارية - أولاد عون السبعة ، وتولى أحدهم ويدعى الضري ، منصب القضاء في زمن الفنج . وليس من المستبعد أن يكون من أحفاد غلام الله من انتقل من دنقلة إلى جهات النيل الأزرق ، أواسط القرن الخامس عشر ، حيث أنشأوا المساجد للعبادة والتدريس .

وإذا استثنينا بعض الحالات التي استخدم فيها العنف لنشر الإسلام بين الجماعات الوثنية ، والقضاء على العادات القديمة ، فإن أساليب الدعوة الإسلامية زمن الفونج ، كانت سلمية خالصة^(٦٦) . وتميزت هذه المرحلة من تاريخ الدعوة ، بظهور طبقة من الفقهاء ورجال الصوفية الذين تعهدوها بأساليب جديدة ، قامت أساماعلى شرح تفاصيل الدعوة ومبادئها للناس ، ونهيبهم عما يتعارض من عاداتهم ومعتقداتهم مع الإسلام . والواضح مما ذكرته بعض المراجع السودانية المختلفة أن هذه الحركة العلمية مصدرها مصر ، والحجاز وبلاد المغرب والعراق وغيرها . ويرجع هذا في الغالب ، إلى هجرة أفراد أو أسر متقنة من هذه الدول الإسلامية ، إلى جهات وادي النيل الأوسط ، لينزلوا في كنف ملوكها رغبة في عطائهم وإكرامهم ، أو ليعيشوا في خيراتها وأراضيها الواسعة ، أو لينشروا دين الله والعلم والتصوف ، أو ليتخذوه مأوى جديدا بعد أن ضاقت بهم أوطانهم^(٦٧)

Mac. Michael, H. A. : op. cit., II, manusc. B.A. p. 36 (٦٥)

Jackson, H. C. : op. cit. p. 210 (٦٦)

(٦٧) عبد العزيز عبد المجيد - الترية في السودان ج ١ ص ٥٥

وفضلاً عن هؤلاء فإن كثيراً من أبناء مملكة سنار، كانوا يرحلون إلى مصر لتلقي العلم بالأزهر، ثم يعودون إلى بلادهم. ومنهم من كان يهج إلى بيت الله الحرام ويأخذ العلم عن أحد قهاتها، أو يأخذ الطريقة عن أحد مشايخ الطرق في الحجاز. وهؤلاء وأولئك جميعاً كان لهم أثر واضح في نشر الثقافة الإسلامية في مملكة سنار.

ومن الأمثلة الدالة على هذا، ما ذكره المراجع بصدد هجرة السناريين إلى مصر لتلقي العلم أوائل القرن السادس عشر الميلادي. ومن بين هؤلاء محمود العركي، الذي أخذ العلم عن ناصر الدين اللقاني وأخيه شمس الدين. ثم عاد إلى وطنه فأسس سبع عشرة مدرسة، ما بين أليس (الكدة) والحسانية (توتى). ويعد محمود العركي أول من طبق أحكام الدين الإسلامي في هذه المنطقة بتفقيه الناس وأمرهم بالعد (٦٨).

وامتاز النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بازدهار الثقافة الإسلامية في مملكة سنار. إذ أن عدداً من السناريين ارتحلوا إلى مصر لطلب العلم بالأزهر. ومن بين هؤلاء أولاد جابر الأربعة. فأكبرهم إبراهيم المعروف بالبولاد، تفقه على الشيخ محمد البنوفري إمام المالكية في مصر، وأخذ عنه الفقه والأصول والنحو، ثم عاد إلى ترنج مسقط رأسه في أرض الشايقية. وكان أول من درس مختصر خليل في مملكة الفونج. « وتخرج على يديه أربعون إنساناً صاروا كلهم أولياء وأقطاباً ». ومن إخوة إبراهيم، عبد الرحمن الذي نهج نهجه ورحل إلى الأزهر وتلمذ على الشيخ البنوفري. ومنهم من تردد على مصر من وقت إلى آخر، للاتصال بعلمائها كما فعل الأخ الثالث إسماعيل، الذي أجازته الشيخ البنوفري كذلك. وغدت بلاد الشايقية، مقصد الطلاب من أنحاء مختلفة في مملكة الفونج في منتصف القرن السادس عشر الميلادي (٦٩).

وحوالي سنة ٩٥٠ هـ (١٥٤٣ م) قدم من مصر الشيخ محمد القناوي المصري

(٦٨) طبقات ودضيف الله. ص ٥، ١٦٣

(٦٩) طبقات ودضيف الله ص ٦

الأزهري الثقافة ، تلميذ الشيخين سالم السنهوري ، ويوسف بن عبد الباقي الزرقاني -
ودخل بربر وأربجي وسنار ، غير أنه فضل سكنى بربر ، وبني بها مسجداً لتدريس
الرسالة والعقائد والنحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فباشره بعفة ونزاهة . وتخرج
على يديه عدد من أبناء بربر وغيرهم ، منهم حفيده الشيخ الضوى المصرى ، والشيخ
محمد بن عيسى سوار الذهب من أهل دنقلة^(٧٠) .

ومن العلماء المصريين ، الذين قدموا إلى مملكة سنار في النصف الثاني من القرن
العاشر الهجرى كذلك ، الشيخ محمد بن علي بن قرم الكياني المصرى . وهو شافعى
الذهب ، وتلميذ الخطيب الشريينى . فأقام في بربر ودرس المذهب الشافعى في بربر
وأربجي . ومن تلاميذه ابنة الشيخ الشكاك والقاضى دُشين قاضى أربجي ، فى عهد
الشيخ عجيب المانجلك وغيرهم كثير^(٧١) .

ثم وفد من الحجاز أهدأمة الصوفية ، ويدعى تاج الدين البهارى البغدادى ، وهو
خليفة الطريقة القادرية الجيلانية . واستقر تاج الدين فى أرض الجزيرة سبع سنين
تمكن فيها من إدخال الطريقة الجيلانية ، بعد تسليك خمسة من المريدين ، منهم
الشيخ محمد الهميم . ثم تولى هؤلاء تسليك غيرهم ، بعد عودة شيخهم إلى
الحجاز^(٧٢) .

وفى هذا الوقت أيضاً (أى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى) قدم التلمسانى
المغربى ، على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم ، وعلمه علم
الكلام ، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها . وانتشر علم التجويد والتوحيد
فى مملكة سنار . وممن أخذ عنه عبد الله الأغبش من بربر^(٧٣) .

وتمتع أولئك المشايخ بنفوذ واسع فى مملكة سنار . فأقطعوا الإقطاعات الواسعة،

(٧٠) المصدر السابق ص ١٦٥

(٧١) المصدر السابق ص ١٦٩

(٧٢) المصدر السابق ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٣٥

(٧٣) المصدر السابق ص ٥

ولم يرد لهم طلب عند الحكام والملوك ، ومن استجار بهم فهو آمن غضب السلطان ، مما شجع أولئك المشايخ على الإقامة ونشر الدين والثقافة الإسلامية في هذه البلاد .

والواضح من دراسة حياة أولئك الرواد ، أن مصر هي المصدر الأساسي للثقافة الإسلامية ، التي ظهرت في مملكة سنار في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . ومن الملحوظ هنا أن الأثر المصري يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمي في معظمه . فإن أولئك الذين أخذوا عن علماء الأزهر « بالباشرة أو الواسطة » ، اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد وغيرها من العلوم . على حين أن الطابع الصوفي ، أو الصوفي العلمي معا كان غالباً على تعليم الثقافة الحجازية والمغربية والعراقية^(٧٤) .

ومن الملحوظ هنا كذلك ، أن الطابع العلمي الذي تأثر به السناريون ، اتجه إلى حصر الانتباه في العلوم النقلية ، التي سادت العالم الإسلامي منذ القرن العاشر الهجري ، بعد أن تغيرت أساليب التربية الإسلامية على يد الأتراك وغيرهم ، وانصرف العلماء إلى التأليف والتحرير ، لا إلى الاجتهاد والتخريج ، ومييل معظم علماء هذا العصر إلى اختصار ينقصه الشرح والتعليق^(٧٥) .

أما عن المذاهب الدينية ، فالسناريون غلب عليهم مذهب مالك ، بسبب اتصالهم بأهل صعيد مصر ، الذين غلب عليهم هذا المذهب . وأما الدراسة العلمية لهذا المذهب ، فقد ظلت مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى . وانتقلت دراستها إلى مملكة سنار على يد خريجي الأزهر سناريين ومصريين ، مثل الشيخ إبراهيم البولاد والشيخ محمد القناوى المصرى وغيرها .

وعلى الرغم من أن انتشار المذهب الشافعى كان محدوداً ، إلا أن القليل من علماء الشافعية الذين تخرجوا في الأزهر وتلاميذهم كان لهم أثر واضح في نشر تعاليم الإسلام .

(٧٤) عبد المجيد عابدين - تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٥٦ - ٥٧

(٧٥) عبد العزيز عبد المجيد - التربية في السودان . ج ١ ص ٥٢

ومن هؤلاء محمد بن قرم الكيماني المصري ، وتلاميذه عبد الله العركي والقاضي دشين الشافعي قاضي أربيجي وعبد الرحمن ولد حمدتو والشيخ إبراهيم الفرضي وغيرهم^(٧٦) .
وانتشرت علوم القرآن في مملكة سنار ، أواخر القرن العاشر الهجري . ويقال إن الشيخ محمد سوار الذهب من دنقلة ، تلقى علوم القرآن على التلمساني المغربي ، كما تلقاها من قبل ، على الشيخ محمد القناوي المصري في بربر . وليس من المعروف تماما أيهما كان أقوى أثرًا . غير أن انتشار قراءة ورش في دنقلة ، وأبي عمرو في معظم جهات مملكة سنار - وهما القراءتان الشائعتان في بلاد المغرب - يدل على تأثر السناريين ببلاد المغرب في علوم القرآن أكثر من تأثرهم بمصر .
وإلى جانب الثقافة العلمية ، ظهرت في مملكة سنار ، منذ القرن العاشر الهجري ، بوادر ثقافة صوفية كذلك ، وهي الثقافة التي كانت شائعة ، ذلك الحين ، في بلاد العالم الإسلامي مثل الحجاز والعراق ومصر وبلاد المغرب . ومنها تسربت إلى مملكة سنار على يد بعض الدعاة أو المواطنين الذين اتصلوا بمنابعها . وللسناريين صلات غير منقطعة بالحجاز ، ولاسيما في موسم الحج ، لطلب العلم على علماء الحرمين . ثم إن بعض قادة الصوفية في الحجاز وبلاد المغرب قدموا إلى مملكة سنار ، حيث طاب لهم فيها المقام ، لترحيب السناريين بهم وتشجيع ملوك الفونج لهم . ولقيت الطرق الصوفية في مملكة سنار منبثا خصبا ، ويرجع هذا في الغالب ، إلى أن كثيرا من المشايخ أظهروا من الصفات ، ما جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذا في ساعات الضيق والعسرة . كما أن الحروب والانقسامات الداخلية - التي سبقت عصر الفونج - أورثت في نفوس السناريين في هذا العهد ، رغبة شديدة في حياة مستقرة ، مما دعاهم إلى الاستجابة لدعوة أولئك المشايخ ، الذين ظهروا مع قيام مملكة الفونج للانتظام في سلك العبادة .

(٧٦) طبقات ود ضيف الله ، ص ١٦٩

ويقال إن الطريقة الشاذلية ، دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج ، على يد الشريف حمد أبي دنانة سنة ١٤٤٥ م . ثم رسخت دعائمها زمن الفونج ، على يد الشيخ خوجلي عبدالرحمن المتوفى سنة ١٧٤٣م ، والذي كان أول أمره قادرياً ثم تحول شاذلياً^(٧٧) .

ويظهر أن هاتين الطريقتين ، عند ما دخلتا بلاد سنار ، لم يكن لهما هيئة مركزية منظمة ، تضم الشيخ الأكبر وخلفاءه ومريديه ، بل كانت الطريقة تسلك على يد شيوخ كثيرين منتشرين في أنحاء البلاد ، مستقايين عن بعضهم ، إلا من حيث الرباط الروحي ، الذي يربطهم جميعاً باعتبارهم من أتباع طريقة واحدة . ولم يدخل التنظيم على هذه الطرق إلا في القرن التاسع عشر الميلادي .

ومن الملحوظ هنا ، أن بعض الفقهاء السناريين ، أصبحوا شيوخاً صوفية ، ومن هؤلاء الشيخ عبد الله العركي . على أن أغلب رجال الصوفية - في هذا العهد - (القرن العاشر الهجري) كان من غير العلماء . ومن هؤلاء خليل بن علي الصاروي ، الذي كان في أول أمره خماراً شرابياً^(٧٨) . ومنهم الشيخ محمد الهميم ، الذي كان من أكبر قادة الصوفية في مملكة سنار ، « مع كونه أمياً لم يقرأ إلا لغاية الزلزلة »^(٧٩) . وقد يكون بعض السبب في هذا راجعاً إلى أن الناس في هذا الوقت (القرن العاشر الهجري) ، كانوا لا يزالون في مستوى ثقافي لم يتوافر فيه التعرف على حقيقة التعاليم الإسلامية ، وتدبر أصول الدين ، مما جعلهم لا يميزون بين ما هو من أصل الدين وما هو بدعة ، فيسهل التأثير فيهم ، ويتملكهم كل شيء طريف غير مألوف ، كالتحدث بالغيب والكرامات ، وادعاء الطب الروحاني ، ولا سيما إذا جاء هذا عن طريق الدين .

وكيفما كان الأمر ، فإن أثر الطرق الصوفية يبدو واضحاً في التقريب بين الجماعات

(٧٧) Trimingham, J. S. op. cit. pp. 196-197

(٧٨) طبقات ود ضيف الله، ص ٨٤

(٧٩) المصدر السابق ص ١٥٠

الجنسية ، لأنها تعمل على إضعاف العصبية القبلية ، وإيجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة^(٨٠) . من ذلك أن التجمع الصوفي كان نواته شيخ الطريقة ، يجتمع إليه الناس ويصبحون تحت لواء الشيخ طريقة واحدة ، تجمع الدعوة شملهم على اختلاف قبائلهم وسلالاتهم .

وهكذا يمكن القول ، إن القرن السادس عشر الميلادي ، كان عهد انتقال من المسيحية التهدمة ، إلى الإسلام البدوي ، على أيدي جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة ، أو من الوطنيين الذين أخذوا العلم عن أولئك العلماء الوافدين ، وإلى هؤلاء وأولئك جميعاً يرجع الفضل في وضع الأسس التي قامت عليها النهضة العلمية والصوفية ، التي ازدهرت في مملكة سنار منذ القرن السابع عشر الميلادي .

مصطفى محمد مسعد